مقالة صغيرة في القول الكبير

اللسان - اللغة - الكلام - الكتابة - البلاغ - الافصاح - اللهج - التعبير - البيان - القول: مفردات أخر، بعضها تحجر في كهف القاموس، وبعض يبحث عن جوهره في عرَض ايامنا.

نقول كثيراً ونعني قليلاً. يظلّ القول أكبر من المعنى. يظلّ على حدّه أو خارجه.

نقول في بلادنا ونعني بلاداً اخرى. ليس كانموذج بل كصدى أو حدس أو تخمين أو وهم أو رغبة. أحيانا يتوفر الحلم لكنه سرعان ما ينسحب وينطوي على ذاته فيفقد ذاته. ويظل القول الذي لا يحمل معنى في بلادنا ولا يوفّر معنى للبلاد الاخرى التي تمتلك قولها ومعناها بقدر كاف من التطابق والانسجام.

لا أتفلسف. أحاول وصف الراهن من خلاله. وأحاول تحقيق قدر من التكافؤ بين ما أقول وما أعني. وأحاول الخروج على ذاتي فيما أحاول الخروج على حالة تبدو لي عامة (مع كل ما في التعميم من مساوىء).

لا أتفلسف. أضع قليلا من الملح الذي هو ملحي على قليل من

الجراح التي هي جراحي، ويكون ذلك على النحو التالي:

نقول الحرية ..

هل نقولها كما يقولها العبد، أم كما يقولها الحُر ؟ "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" نكررها يومياً دون أن يطرف لنا جفن، ونحن نَستعبد ونُستعبد، وعيا ولا وعيا، نظل عند تخوم القول. نلوب ونقول ونفرقع أصابعنا ونستعرض جيوشنا وسبحاتنا وجرائدنا وشاشات تلفزيوننا، غير مدركين أننا في الحقيقة لا نملك شيئا من هذا على الاطلاق، لاننا لسنا أحرارا في أن نملك. ونكتفي بالوهم بأننا نملك وبأننا (شخصيا) أحرار، أما الذين يحتاجون الحرية فهم ناس آخرون، أشخاص آخرون، الشعب، الذي نحن منه في القول ولسنا منه في الحرية. نطالب بحرية المرأة ما دامت المرأة الاخرى. خارج أسرتنا، خارج امرأتنا. خارج صَدَفتنا. خارج عبوديتنا. ونطالب بحرية الطبقة العاملة. وحرية الرأي. وحرية الصحافة وحرية الاديب. هناك وليس منا. كأنما نحن مكلّفون بالانشغال الدائم خارجنا، حتى يتمكن آخرون (منا؟) من متابعة الحرية في استعبادنا، وحتى نتمكن نحن من متابعة غيبوبة الحرية في عبوديتنا!

ونقول الوحدة ..

نقولها هتافاً في مظاهرة وشعاراً على منشور ولوحةً على جدار وخارطة بلا حدود على شاشة تلفزيون. نقولها شعراً ونثراً. ونقيم لها حزبا قومياً ثورياً تقدمياً وحدوياً مدنياً وعسكرياً، علمانياً ودينياً.

وتصدّق الجماهير قولنا. وحين نحكم قُطرين فانهما لا يتحولان الى قطر واحد بل يتحول الحزب الى حزبين. وتبقى الحقيقة الاقليمية الانفصالية الانعزالية، لكن يبقى أيضا قول الوحدة. ونقولها بمنتهى الصفاقة والوقاحة. نقولها في عمى تام وفي غيبوبة تامة. ونستحضر أرواح الآباء والاجداد من عقبة بن نافع حتى صلاح الدين ونستحضر الاستعمار والامبريالية والكولونيالية ، حتى لكأننا لا نستطيع أن نكون إلا بكل أضرحة الماضي البعيد وشرور الماضي القريب. أما الحاضر فليس لنا. ذلك أننا (نحن) القول شيء. و(نحن) المعنى شيء آخر. ونعي فصامنا ونعي داءَنا. وتظل الوحدة قولا لا دواء. فلا مكان مشتركا ولا زمان مشتركا بين القول والمعنى. ومن هنا يصدر جنوحنا الى الظاهرة البسماركية. وهذا الجنوح الجنونيّ، بلا شك، يعكس رغبة حقيقية، بلا شك، في الجمع بين ثورين هائجين على محراث واحد. وتظل الرغبة قولا. ويظل العمل رغبةً لا أكثر.

ونقول الشورى ..

نقول الشورى حتى لا نقول الديمقراطية. ونحن في نهاية الامر لا نعني هذه ولا تلك. ومن الطبيعيّ إذن ألا نبلغ لا هذه ولا تلك. ومن الطبيعيّ ألا يكون هذا الوضع طبيعياً. ومما ينافي الطبيعة أن تستمر هذه الطبيعة. نقول الشورى ونحلم ببزّة الشرطي. نقول الشورى ونؤسس مجالس الشورى في حنين هائل إلى الدكتاتور وإلى الحاكم المطلق الذي يزيد من دكتاتوريته ومن حكمه المطلق كونه أسس مجلسا للشورى، ما دامت الشورى لا تعني الديمقراطية، وبهذا فهي لا تعني ذاتها، وتكف عن أن تعني شيئا غير القول، حتى لكأن القول هو

الغاية والمعنى ليس غير وسيلة للقول، تفقد مبررها عند تحقق القول نفسه، مثلما يفقد الصاروخ مبرره حين يبدأ القمر الصناعي دورته الفضائية..

وهكذا ..

نقول الجهاد، نقول الفداء، نقول الوطن، نقول الاخلاق، ونقول كل شيء، وعيوننا على الاضرحة أو على الشرور الوافدة من الغرب، أو من الشرق، أو من أية جهة متاحة، غير جهتنا نحن.

نقول ونقول، والثوران الهائجان في ألسنتنا وعلى (ألسنة!) أقلامنا، الثوران الهائجان في أرواحنا وأيدينا وأقدامنا، الثوران الهائجان في جغرافيتنا وسياستنا واقتصادنا واجتماعنا، يشدّان، كل إلى قبلته. والى أفقه غير الواضح..

وحين نخرج. فقط حين نخرج من شَرَك القول الى صراط المعنى المنسجم والمتناسق مع قوله، فقط آنذاك، نستطيع الجمع بين الثورين الهائجين على محراث واحد. وفقط آنذاك نستطيع استخراج ثمرة الجوهر من أجسادنا وأرواحنا وعقولنا وأرضنا.

كيف يتم التحقق الكبير لهذه المعجزة الصغيرة؟

أنا أسال. ولا أتفلسف !!

بالتعاون بين «العربي» و «الناقد»